وقف مركز مكة العالمي للهدى القرآني
جمعية القلم للدراسات والأبحاث
مؤتمر
هدايات القرآن في بناء الإنسان

عنوان البحث:

القيم السياسية في القرآن الكريم

اسم الباحث/ـة

د/ محمد أحمد محمد قنديل

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الأمة الإسلامية صنيعة القرآن الكريم، فلو سأل سائل متى نشأت الأمة الإسلامية؟ لكان الجواب نشأت الأمة مع هذا الحدث الذي هو قول الله تعالى: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) سورة العلق : ١.

أي مع بداية نزول أول آية من القرآن الكريم، انطلقت مسيرة الإسلام، وتشكلت الأمة الإسلامية، فالأمة هذه إنما صنعها القرآن الكريم، ومعنى أن يقول المسلم: أنا مسلم ، أي أنا أحيى بالقرآن ، ففي حياتنا كلها يريد الله تعالى أن يربطنا بالقرآن الكريم ، وأن يفرض علينا أن نقرأ القرآن ، ففي الصلوات نحن نقرأه ، ولا تصح الصلاة إلا بالفاتحة .

والأمة قامت انطلاقاً من القرآن الكريم، به كانت وبه فعلت ما فعلت عبر التاريخ، وبه ما تزال باقية، كل ذلك بفضل هذا الكتاب العزيز، بعد فضل الله عز وجل.

والقرآن الكريم يحوي نظاما قيميا متكاملاً، والقيم هي جوهر الأخلاق في الإسلام ، وتلك القيم ممتدة على مستوى الفرد والأسرة ، والمجتمع والأمة .

ومن أهم تلك القيم ، هي القيم السياسية بما فيها من التوحيد والعدالة والشورى والطاعة .

أهمية الموضوع :

١- الحديث عن القيم أصبح من الأولويات، ذلك أن الأمم بطبيعتها تتشكل كينونتها وهويتها من مجموع القيم التي تعيش عليها ، ولا يتمايز مجتمع عن آخر إلا بنوعية القيم التي يحتضنها مجتمع ويعيش عليها ويؤمن بها .

٢- ونحن المسلمين لنا قيم بُني عليها ديننا ، وكذلك نحن لا نخرج عن القيم العالمية ، من حيث المبدأ ، فنحن الأمة الإسلامية نتجاوب مع كل أنواع الخير في العالم ، وليس لنا موقفا مبدئيا أن نكون ضد القيم الفاضلة والسامية ، ولما ذكر حلف الفضول في الجاهلية لنصرة المظلوم ، قال النبي صلى الله عليه وسلم

لو دعيت لمثله في الإسلام لأجبت ، لأن الأمة مفتوحة على كل القيم الفاضلة وأنواع الخير ، فكل أنواع الخير التي تتم في الأرض فالأمة الإسلامية سبَّاقة إليها ولكن من حقنا كمسلمين أن نعطي في تفسير تلك القيم بصمتنا التي تعبر عن هويتنا ومرجعيتنا من الكتاب والسنة ونختلف أحيانا في تفسير تلك القيم كل حسب مرجعيته .

٣- تعتبر العدالة من آكد القيم الأخلاقية وأهمها في حياة البشر، وخاصة في مجال نظم الحكم وبناء الدول، ويتمثل ذلك في الوثائق الدستورية والقانونية، التي تهدف إلى تحقيق العدالة للأمة أفرادًا وجماعات بما يضمن لها الحياة الآمنة المستقرة، فبالأمن والاستقرار تنهض الأمم، وتحقق الرخاء المنشود.

وإذا كان النموذج الحضاري الغربي يجعل من المبدأ الديمقراطي القيمة الجماعية العليا التي لا تقبل التنازل أو المفاضلة، كما يجعل من مبدأ الحرية في شقه الليبرالي القيمة الفردية العليا، والتي تغيرت في شقه الاشتراكي ليحل مبدأ المساواة محلها كقيمة عليا، وما عدا ذلك يدخل في عداد القيم الفردية التابعة، حيث العدالة والشرعية على سبيل المثال لا الحصر، فإن النموذج الحضاري الإسلامي، يقدم نظامًا قيميًا مختلفًا تمامًا، حيث يكون مبدأ التوحيد قيمة جماعية عليا ذات طبيعة محورية تحدد ماهية المجتمع الإسلامي، وتلقي بظلالها وانعكاساتها على جميع القيم الحضارية الإسلامية الأخرى، فإذا بمبدأ الشورى، وهو قيمة جماعية أيضًا، يتبع مبدأ التوحيد، وإذا بمبدأ العدالة في نطاق القيم الفردية يصعد ليحتل مرتبة القيمة الفردية العليا، في حين تأتي قيم الحرية والمساواة والشرعية وغيرها من القيم الإسلامية في نطاق القيم الفردية التابعة.

٤- مبدأ الشورى هو التطبيق الجماعي لمبدأ العدالة السياسية في القرآن الكريم

٥- ويغلف هذا وذاك (العدالة والشورى) مبدأ التوحيد، الذي يعد جوهر القيم السياسية القرآنية وقالبها، حيث يسود على هذه القيم جميعها، ولا تملك هذه القيم إلا أن تدور في محيطه ودائرته فتتشكل به ولا تخرج عنه.

وإنما كان التوحيد الخالص كذلك ، لأن التوحيد هو جوهر العقيدة الإسلامية ، وبالتوحيد يحرر الإسلام الإنسان من عبودية غير الله "لا آله إلا الله" ويرفض كل أشكال الألوهية المزيفة على مر التاريخ – خاصة ما يسمى بالتفويض الإلهي في الحكم- وهذا هو تحرير الإنسان من الداخل ، ثم يقرر كنتيجة طبيعية لذلك – تحرير الثروة والكون من أي مالك سوى الله تعالى ، وهذا هو تحرير الإنسان من الخارج وهو ببساطة انتماء الجماعة البشرية إلى محور واحد وهو المستخلِف – أي الله سبحانه وتعالى – الذي استخلفها على الأرض بدلا عن كل الانتماءات الأخرى ، وذلك يعني الإيمان بسيد واحد ومالك واحد للكون وما فيه . وهو الذي قام على أساسه الإسلام، وهو تحقيق لكلمة " لا إله إلا الله ، قال الله تعالى :﴿ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ﴾ يوسف : ٣٩ ،.

وهذا المبدأ العظيم يجسد روح الأخوة العامة في كل العلاقات الاجتماعية بعد محو ألوان الاستغلال والتسلط.

وهو نتيجة منطقية لتوحيد الله والإيمان بسيادته وعبودية الناس جميعا ومساواتهم. " فمن الطبيعي أن يكونوا أخوة متكافئين في الكرامة الإنسانية والحقوق كأسنان المشط على ما عبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا تفاضل ولا تمييز في الحقوق الإنسانية ، ولا يكون التفاضل في مقاييس الكرامة عند الله تعالى إلا على أساس العمل الصالح تقوى أو علماً.

مشكلة البحث وأسئلته:

مدى حضور تلك القيم القرآنية في حياتنا، وتكوينها لهوية الأمة الإسلامية، إذ الأمة الإسلامية هي صنيعة القرآن الكريم .

فكانت الأسئلة التي تجيب عليها الدراسة:

ما هي علاقة التوحيد بالقيم السياسية في القرآن الكريم؟

ما هي مفهوم العدالة في القرآن الكريم؟ ومدى حضورها في حياة الأمة ؟

ما هو مفهوم الشورى ومدى حضورها؟

ما هي مفهوم الطاعة في النظام الإسلامي ومدى حضورها.

منهج البحث:

اعتمد البحث أسلوب الدراسة الوصفية التحليلية بهدف الوصول إلى النتائج المرجوة، المنهج الوصفي التحليلي ، كما استند البحث إلى المنهج المقارن للموازنة مع النظم الأخرى .

هيكلية البحث:

يتكون البحث من تمهيد وخمسة مطالب وخاتمة، وهي كالتالي:

التمهيد: مدخل مفاهيمي

المطلب الأول: القيمة الأولى: التوحيد.

المطلب الثاني: القيمة الثانية: العدالة.

المطلب الثالث: القيمة الثالثة: الشورى.

المطلب الرابع: القيمة الرابعة: الحرية .

المطلب الخامس: القيمة الخامسة: الطاعة.

الخاتمة: وفيها نتائج البحث .

مدخل مفاهيمي.

في هذا التمهيد نوضح مفهوم مفردات الدراسة والتي جاءت بعنوان القيم السياسية في القرآن الكريم

وفي هذه السطور نوضح مفهوم القيم، والسياسة.

أولاً: مفهوم القيم :المعنى اللغوي: وردت لفظة القيم مفردة في القرآن في قوله تعالى: ﴿دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ سورة إبراهيم : ١٦١ ، وكذلك ورد في قوله تعالى: ﴿ وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ سورة النساء : ٥ ، أي بها تقوم أموركم.

–ومعنى القيمة في اللغة: قيمة الشيء أي قدره وقيمة المتاع: ثمنه ويقال لفلان قيمة: ماله ثبات ودوام على الأمر والجمع قيم .[١]

والشيء القيّم الذي له قيمة عظيمة مبالغة، وتشتق كلمة القيمة في اللغة العربية من القيام، وهو نقيض الجلوس، والقيام بمعنى آخر هو العزم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ﴾ سورة الجن : ١٩ ، أي لما عزم. كما جاء القيام بمعنى المحافظة والإصلاح، ومنه قوله تعالى: ﴿الرِّجالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ سورة النساء : ٣٤ ،وأما القوام فهو العدل، وحُسن الطول، وحُسن الاستقامة.[٢]

–المعنى الاصطلاحي:

تعددت تعاريف مفهوم "القيم" تبعا للحقول المعرفية التي وردت التعاريف فيها، وجذورها، وامتداداتها الفلسفية ،والاجتماعية والنفسية. فقد حظي موضوع القيم باهتمام كبير من قِبل المتخصصين في ميادين عدة كالفلسفة وعلم الاجتماع والتربية حيث تعتبر القيم من أهداف التربية والمنهج التربوي الرئيسة. كما اهتم بدراستها الباحثون في علم النفس بمعظم فروعه الاجتماعي،

---

(١) المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية ، دار الشروق الدولية ، ٢٠٠٤م ، ص ٧٦٨.

(٢) الفكر العربي الإسلامي، عادل العوا ، تونس : المنظمة العربية للثقافة والإعلام ، ١٩٨٧م ،ص ٢١٥ ، ٢١٦

والإرشادي، والتطوري والتربوي.

فمن الناحية المعجمية، تعرّف القيمة بأنها: ما يتميز به الشيء من صفات تجعله مستحقا لتقدير كثير أو قليل فإن كان مستحقا لتقدير بذاته كالحق والخير والجمال كانت قيمته مطلقة، وأما إن كان مستحقا للتقدير من أجل غرض معين كالوثائق التاريخية والوسائل التعليمية كانت قيمته إضافية.(١)

وعلماء الاجتماع فيرون أن القيمة صفة للشّيء تجعله ذا أهمّيّة بالنّسبة إلى الفرد أو الجماعة، وهي القرار أو الحكم الّذي يُصدره الشّخص نتيجة لتفاعله مع جماعته وفق السّلوكيّات المعياريّة في المجتمع الّذي يعيش فيه.

فالقيم تشكل الإطار المرجعيّ الّذي يشمل الاتّجاهات والمعتقدات والقناعات في البنية المعرفيّة للفرد الّتي توجّه سلوكه جهة معينة، والتي يحكم من خلالها على هذا السلوك بأنه خير أو شر جميل أو قبيح، مرغوب فيه أم غير مرغوب فيه.(٢)

وقد عرّف معجم علوم التربية القيم بكونها: مجموع معتقدات واختيارات وأفكار تمثل أسلوب تصرف الشخص ومواقفه وآراءه، وتحدد مدى ارتباطه بجماعته .فهي مجموعة من القوانين والأهداف والمثل العليا التي توجه الإنسان سواء في علاقته بالعالم المادي أو الاجتماعي أو السماوي.(٣)

فالقيم انعكاس للأسلوب الذي يفكر الأشخاص به في ثقافة معينة، وفي حقبة زمنية معينة، وهي التي توجه سلوك الأفراد وأحكامهم واتجاهاتهم فيما يتصل بما هو مرغوب فيه أو مرغوب عنه من أشكال السلوك في ضوء ما يضعه المجتمع من قواعد ومعايير. وقد تتجاوز الأهداف المباشرة للسلوك إلى تحديد الغايات

---

(١) المعجم الفلسفي، جميل صليبا، بيروت ، الشركة العالمية للكتاب ، ١٩٩٤م ، ٢ ،/ ٢١٣

(٢) القيم التي تقوم عليها حقوق الإنسان ، رقية العلواني ،

(٣) الأصول الفلسفية للتربية ، الهادي عفيفي ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو ، ١٩٧٨م ، ص ٢٨٦

المثلى في الحياة، فهي إحدى المؤشرات الهامة لنوعية الحياة، ومستوى الرقي، أو التحضر في مجتمع من المجتمعات.[١].

من هنا تصبح القيم معايير للحكم على الأعمال والأفعال المادية والمعنوية، وتكون لها من القوة والتأثير على الجماعة بحيث يصبح لها صفة الإلزام والتعميم.

ثانياً: السياسية:السياسة في لغة العرب: ساس الناس سياسة: تولى رياستهم وقيادتهم ،، ساس الأمور : دبرها وقام بإصلاحها . والسياسة القيام على الشيء بما يصلحه.[٢]

السياسة في الاصطلاح:" هِيَ استصلاح الْخلق بإرشادهم إِلَى الطَّرِيق المنجي فِي العاجل والآجل ."[٣]

–مفهوم السياسية الشرعية: والسياسية الشرعية هي:" تدبير شؤون الأمة، وتنظيم مرافقها بما يتفق وروح الشريعة ،وأصولها الكلية، ولو لم يرد فيها شيء من النصوص التفصيلية الجزئية الواردة في الكتاب والسنة."[٤]

وهي بهذا التعريف تشمل نوعين من الأحكام،

الأول : إيجاد الأحكام وإنشاؤها فيما لا نص فيه ، استنادا إلى روح التشريع ومبادئه العامة والمصالح المرسلة .

أما الثاني: فهو فقه التطبيق، توفيقاً بين غاية النص ومآله، بما يحفظ كيان الأمة.

---

(١) ارتقاء القيم ، عبد اللطيف خليفة ،الكويت ، سلسلة عالم المعرفة ، ١٩٩٢ ، العدد ١٦٠ ، ص ١٤ ، ١٥

(٢) لسان العرب، ابن منظور ، القاهرة ، دار الحديث ، ٢٠٠٣ ، ٤ / ٧٤٧ ، المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية ، القاهرة ، ٢٠٠٥ ، ص ٤٦٢

(٣) الكليات ، الكفوي بيروت ، الرسالة ، ص ٥١٠

(٤) السياسة الشرعية والفقه الإسلامي، عبد الرحمن تاج ، القاهرة ، مطبعة دار التأليف ، ١٩٥٣م،ص١

وعرّف ابن عقِيل السِّياسة الشرعية بقوله:" ما كان فعْلًا يكونُ معه الناس أقْرب إلى الصّلاحِ، وأبْعد عن الْفسادِ،وإِنْ لم يضعهُ الرّسولُ صلى الله عليه وسلم ولا نزل بِهِ وحْي)"[١]

كما أورد ابن نُجيم الحنفيّ المعنى الشامل لكلمة السِّياسة عند الفقهاء فقال:" فعْلُ شيْءٍ من الْحاكِمِ لِمصْلحةٍ يراها وإِنْ لم يرِدْ بِذلِك الْفِعْلِ دلِيل جُزْئِيّ ."[٢]

والقيم السياسية الإسلامية: هي مجموعة القيم السياسية التي وضعت أصولها الحضارة الإسلامية، ثم مجموعة التجريدات السياسية المتكاملة ، أي البنيان الفكري لتصوير وتفسير الوجود السياسي ، حيث نستطيع أن نميز بين القيم السياسية والفلسفة السياسية ." [٣].

المطلب الأول: القيمة الأولى: التوحيد.

حينما جاء الإسلام كان هدفه الأساس التوحيد ونفي الشرك ، وهذا النفي هو في الحقيقة تحرر للإنسان من جميع القيود التي يظن الكثير أنها تتحكم في مصير الإنسان وحياته ، فالرزق موصول بالله وهو وحده الرازق ،والله هو الذي وهب الحياة ، وهو وحده الذي يستطيع سلبها من الإنسان ، فالمؤمن الذي تشرب بنور التوحيد لا يتلبس بمبدأ تأليه الحاكم أو السلطة المفوضة من الإله أو ما يعرف في أوربا بالحكم الثيوقراطي .[٤]

---

[١] الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، ابن القيم ، ص١٧-١٨

[٢] البحر الرائق شرح كنز الدقائق ، ابن نجيم ، ١١/٥.

[٣] مدخل في دراسة التراث السياسي الإسلامي، حامد عبد الله ربيع ، تحرير : سيف عبد الفتاح ، القاهرة ، مكتبة الشروق ، ٢٠٠٧ ، ١ / ١٦٠

[٤] الحكم الثيوقراطي ، الثيوقراطية أصلها تتكون من كلمتين، "ثيو" وتعني إله، و"قراط" وتعني الحكم، والكلمة مشتقة من المفردة اليونانيةTheokratia ، وتعني حكم الله ، وهي نظام حكم

وإذا كان النموذج الحضاري الغربي يجعل من المبدأ الديمقراطي القيمة الجماعية العليا التي لا تقبل التنازل أو المفاضلة،

كما يجعل من مبدأ الحرية في شقه الليبرالي القيمة الفردية العليا، والتي تغيرت في شقه الاشتراكي ليحل مبدأ المساواة محلها كقيمة عليا، وما عدا ذلك يدخل في تعداد القيم الفردية التابعة، حيث العدالة والشرعية على سبيل المثال لا الحصر.

فإن النموذج الحضاري الإسلامي، يقدم نظامًا قيميًا مختلفًا تمامًا، حيث يكون مبدأ التوحيد قيمة جماعية عليا ذات طبيعة محورية تحدد ماهية المجتمع الإسلامي[1]، وتلقي بظلالها وانعكاساتها على جميع القيم الحضارية الإسلامية الأخرى، فإذا بمبدأ الشورى، وهو قيمة جماعية أيضا، يتبع مبدأ التوحيد، وإذا بمبدأ العدالة في نطاق القيم الفردية يصعد ليحتل مرتبة القيمة الفردية العليا، في حين تأتي قيم الحرية والمساواة والشرعية وغيرها من القيم الإسلامية في نطاق القيم الفردية التابعة.

يدعي أنه يستمد شرعيته وسلطاته مباشرة من الإله، و فيه تتكون الطبقه الحاكمه من الكهنه ورجال الدين .

[1] وإنما كان التوحيد الخالص كذلك ، لأن التوحيد هو جوهر العقيدة الإسلامية ، وبالتوحيد يحرر الإسلام الإنسان من عبودية غير الله ((لا آله إلا الله)) ويرفض كل أشكال الألوهية المزيفة على مر التاريخ . وهذا هو تحرير الإنسان من داخل ، ثم يقرر كنتيجة طبيعية لذلك – تحرير الثروة والكون من أي مالك سوى الله تعالى ، وهذا هو تحرير الإنسان من الخارج وهو ببساطة انتماء الجماعة البشرية إلى محور واحد وهو المستخلِف – أي الله سبحانه وتعالى – الذي استخلفها على الأرض بدلا عن كل الانتماءات الأخرى ، وذلك يعني الإيمان بسيد واحد ومالك واحد للكون وما فيه . وهو الذي قام على أساسه الإسلام، وهو تحقيق لكلمة " لا إله إلا الله ، قال الله تعالى :(أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ) يوسف : ٣٩ ، وهذا المبدأ العظيم يجسد روح الأخوة العامة في كل العلاقات الاجتماعية بعد محو ألوان الاستغلال والتسلط . وهو نتيجة منطقية لتوحيد الله والإيمان بسيادته وعبودية الناس جميعا ومساواتهم. فمن الطبيعي أن يكونوا أخوة متكافئين في الكرامة الإنسانية والحقوق كأسنان المشط على ما عبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا تفاضل ولا تمييز في الحقوق الإنسانية ، ولا يكون التفاضل في مقاييس الكرامة عند الله تعالى إلا على أساس العمل الصالح تقوى أو علماً.

ولا شك أن هذا التباين والتمايز ـ بين نظام القيم بين النموذج الحضاري الإسلامي والنموذج الحضاري الغربي ـ له دلالاته وآثاره المختلفة على التعامل الحضاري عند الأخذ بهذا النظام القيمي أو ذلك، وإذا كان مدخل الحرية والمساواة هما جوهر النظام القيمي للحضارة الغربية، فإن مدخل التوحيد هو جوهر النظام القيمي الجماعي ومدخل العدالة هو جوهر نظام القيم الفردي في الحضارة الإسلامية.(١)

–السيادة لله والسلطان للأمة:إن هذا الدين قد بني على أساس في غاية المتانة، بني على إفراد الله بالربوبية والألوهية، وبالملك والسلطان التام ، وعلى أن الأمر كله كونيًّا وشرعيًّا مرده إلى الله ، وعلى أن الإنسان مخلوق لعبادة الله ، ولا يسعه إلا الرضوخ لإرادته والالتزام بشريعته.

وإذا كانت السيادة في المصالحها، وحده بلا شريك ، فإن السلطان فيه للأمة، وإن الحاكم الذي يسوس الناس سواء سمي الخليفة أو أمير المؤمنين أو إمامًا أو سلطانًا أو ملكًا أو رئيسًا ليس في الإسلام إلا نائبًا عن الأمة ووكيلا عنها وراعيًا لها وقائمًا على مصالحها ، وإذا كان الإسلام خلوًا من رجال دين يحرمون العباد من أن يستظلوا بسيادة الشريعة الإلهية ويمارسون عليهم سيادة بشرية متسربلة بلباس الدين، فإنه خلو كذلك من ملوك يحكمون الناس بسلطان السماء ، ويزعمون أنهم ظل الله في أرضه ، ويسوسونهم بالتفويض الإلهي المزعوم ، وينتزعون حقهم الذي خولهم الله إياه.(٢)

ومما يدل على ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يوص بالخلافة لأحد من بعده، برغم وجود كبار الصحابة بين يديه، وعدم المانع، وترك الأمر لهم

---

(١) نظرية القيم السياسية، حامد ربيع ،مذكرات غير منشورة ، قسم العلوم السياسية ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، جامعة القاهرة،١٩٨٢م، ص ١٣١ وما بعدها . (بتصرف).

(٢) الأحكام الشرعية للنوازل السياسية، عطية عدلان ، ص٧٧ ،٧٨

يختارون من يشاءون، وإنما ألمح فقط لأفضلية أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، ولكن لم ينص على خلافة الصديق رضي الله عنه ، وإنما ترك الأمر لهم يختارون من شاءوا ، وهذا واضح كل الوضوح فيما حدث يوم السقيفة.

وما زعمه الشيعة من أن النبي صلى الله عليه وسلم نص على علي أو أوصى له فهو باطل ومدفوع بما رُوي عن عبد الله بن عباس، أخبره أنَّ عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه خرج من عند رسول الله صلى الله عليه و سلم في وجعه الذي توفي فيه فقال الناس يا أبا الحسن كيف أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال أصبح بحمد الله بارئًا، فأخذ بيده عباس بن عبد المطلب فقال له أنت والله بعد ثلاث عبد العصا[1]،

وإني والله لأرى رسول الله صلى الله عليه و سلم سوف يتوفي من وجعه هذا، إنِّي لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت، اذهب بنا إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فلنسأله فيمن هذا الأمر إن كان فينا علمنا ذلك، وإن كان في غيرنا علمناه، فأوصى بنا . فقال علي إنا والله لئن سألناها رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنعناها لا يعطيناها الناس بعده،
وإنِّي والله لا أسألها رسول الله صلى الله عليه وسلم.[2]

وفي المفهوم الإسلامي أن الله قد خلق الإنسان ضعيفاً وجاهلاً، ولكنه على ضعفه وجهله، فهو يتصرف في الموجودات القوية، ويعلم جميع الأسماء بما وهبه الله من قدرة على النمو والتطور التدريجي في إحساسه ومشاعره وإدراكه، فتكون له السلطة على هذا الكائنات، يسخرها ثم يذللها بعد ذلك كما تشاء قوته الغريبة التي يسمونها (العقل) ولا يعرفون حقيقتها ولا يدركون كنهها ؛

---

(١) قوله:(عبد العصا) كناية عمن يصير تابعا لغيره ، والمعنى: أنه يموت بعد ثلاث ، وتصير مأمورًا عليك ، وهذا من قوة فراسة العباس رضي الله عنه ، فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ، (١٤٣/٨)

(٢) صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، باب مرض النبي صلى الله عليه وسلم ، حديث رقم ٤١١٦ .

فهذه القوة نجدها تغني الإنسان عن كل ما وهب الله للحيوان في أصل الفطرة والإلهام من الكساء والغذاء والأعضاء والقوة.[1]

فالإنسان بهذه القوة غير محدود الاستعداد ولا محدود الرغائب ولا محدود العلم ولا محدود العمل. وكما أعطاه الله تعالى هذه المواهب، أعطاه أحكاماً وشرائع حدد فيها أعماله وأخلاقه، وهي في الوقت نفسه تساعده على بلوغ كماله لأنها مرشد للعقل الذي كان له كل تلك المزايا.

وبهذا العلم كله استحق الإنسان خلافة الله في الأرض، ونحن نشاهد في عصرنا آثار هذه الخلافة بما فعله الإنسان من تطوير وسيطرة وتصرف في الكون.[2]

فمكانة الإنسان هي مكانة الخليفة– وهي وسط بين ادعاء السيادة في الكون، وصورة المجبَر المجرد من أي سلطان– فهو سيد في الكون، لا سيد الكون.

فالسيادة في التشريع ابتداء هي للحاكمية الإلهية المتمثلة في الشريعة السماوية وللإنسان في التشريع سلطة الفقه والتقنين شريطة أن لا يخرج عن حدود الشريعة أو روحها وفلسفتها.

وهو بعبارة الإمام محمد عبده: "عبد لله وحده، وسيد لكل شيء بعده"!..

فقدرة الإنسان ليست على حساب القدرة الإلهية،

كما أن قدرة الله لا تنفي قدرة الإنسان، لأن القدرة الإنسانية هي إرادة إلهية، خلقها للإنسان كي ينهض بأمانة الخلافة والاستخلاف..

ولقد عبر الإمام ابن حزم الأندلسي عن هذا الاستخلاف، الذي جعل الله فيه الإنسان "حاكما"، كمستخلف عن الله، الذي له الحكم والحاكمية والأمر والتدبير، فقال: "إن من حُكم الله أن يجعل الحكم لغير الله"..

---

(١)تفسير المنار (١ / ٢٥٤وما بعدها.)

(٢)تفسير المنار (١ / ٢٥٤ وما بعدها مع التصرف)

المطلب الثاني: القيمة الثانية: العدالة

من أهم القيم السياسية في القرآن الكريم العدالة ، فقد عني القرآن الكريم بهذا المبدأ أيما عناية ، وفي السطور التالية نوضح مفهوم العدالة ومحورتيها في القرآن الكريم وخصائصها .

مفهوم العدالة :العدالة من العدل، وهو: وَضْعُ الشَّيْءِ فِي مَوْضِعِهِ.(١)

وقيل: « هو أن يعطي الإنسان ما عليه، ويأخذ ما له».(٢)

والعدل ضد الظلم. يقول مسكويه: «العادل بالحقيقة هو الذي يعدل قواه وأفعاله كلها حتى لا يزيد بعضها على البعض، ثم يروم ذلك فيما هو خارج عنه من المعاملات والكرامات،

ويقصد في جميع ذلك فضيلة العدالة نفسها لا غرضًا آخر سواها، وإنما يتم له ذلك إذا كانت له هيئة نفسانية أدبية، تصدر عنه أفعاله كلها بحسبها،

ولما كانت العدالة توسطًا بين أطراف، وهيئة يقتدر بها على رد الزائد والناقص إليه، صارت أتم الفضائل وأشبهها بالوحدة، وأعني بذلك أن الوحدة هي التي لها الشرف الأعلى والرتبة القصوى، وكل كثرة لا يضبطها معنى يوحدها فلا قوام لها ولا ثبات، والزيادة والنقصان والكثرة والقلة هي التي تفسد الأشياء، إذا لم يكن بينها منافذة تحفظ عليها الاعتدال بوجه ما، فالاعتدال هو الذي يرد إليها ظل الوحدة ومعناها، وهو الذي يلبسها شرف الوحدة، ويزيل عنها رذيلة الكثرة والتفاوت والاضطراب».(٣)

وهذا النص من كتاب تهذيب الأخلاق لمسكويه لا يضع العدل في أعلى مراتب الفضائل وحسب، ولكنه يحدد فاعليته في داخل منظومة القيم الإنسانية كلها، من حيث قدرته على ضبط التوازن بين القيم الإنسانية جميعًا، فكأنه

---

(١) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي، مرجع سابق، ٢٥ / ١٥٦.

(٢)الكليات، أبو البقاء الكفوي، مرجع سابق ، ص٢٥٣.

(٣)تهذيب الأخلاق،مسكويه، مرجع سابق، ص ١١٢.

ميزان ضامن لجعل كل فضيلة أو قيمة أخلاقية لا تنقص ولا تزيد عما يراد منها داخل السلوك الإنساني.

-العدالة محور القيم الإسلامية: ولا شك في أن صعود مبدأ العدالة ليحتل مرتبة القيمة الفردية العليا في النموذج الإسلامي للممارسة السياسية يجعله نموذجًا متميزًا، ومستقلا عن النموذج الغربي للممارسة السياسية، الذي يجعل الحرية القيمة العليا في شقة الليبرالي، والمساواة القيمة العليا في شقة الاشتراكي[1].

-قصور العدالة في الفكر اليوناني: أفكار العدالة والمساواة التي ترددت في الفكر اليوناني كانت حكرًا- في تصورهم- على المواطن اليوناني فقط، ولم يشركوا فيها الغرباء؛ أحرارًا كانوا أم أرقاء، فهي مساواة وعدالة وطنية. ضيقة الأفق. لا تسمو إلى المعنى الإنساني العام الذي اتسمت به العدالة الإسلامية،[2] هذا السمو، في الفكر الإسلامي. يعد محصلة طبيعية لعالمية الدعوة الإسلامية وطابعها الإنساني. وهذا المعنى الإنساني لم تعرفه الكتابات اليونانية، فأرسطو يرى أن اليوناني سيد حر، والأجنبي عبد له، ولا يستعبد اليوناني أخاه بأي حال من الأحوال، فالعدالة والمساواة عند أرسطو ما هي إلا ضمان لصلاح الحكم، ولا شأن لهما بالحقوق الإنسانية التي يستحقها كل إنسان في أية أمة، ونفس المعاني الضيقة يرددها أفلاطون قبل أرسطو، إذ يرى أن أهل اليونان لا يسترقون بعضهم بعضًا، وإنما يسترقون الأعاجم، لأن الرجل العادل لا يسترق قريبه وصديقه، بل يسترق عدوه فقط.[3]

---

(١)نظرية القيم، حامد ربيع، مرجع سابق ص ٢١٣, ٢١٤.

(٢) لقد ذكر الدكتور إمام عبد الفتاح إمام عن ونستون تشرشل أنه قال: «لقد ارتكبت من الجرائم لصالح بريطانيا، ما لو ارتكبته بداخلها لقضيت حياتي كلها في السجن».الأخلاق والسياسية،إمام عبد الفتاح إمام،ص ٢٤٥.

(٣) الديمقراطية في الإسلام، عباس محمود العقاد، القاهرة :دار المعارف،١٩٨١، ص ١٨، مصطفى غالب، أرسطو، ص ١٤٩.

-خصائص وسمات العدالة الإسلامية:

تتسم العدالة الإسلامية بسمات وخصائص فريدة ومتعددة، ويمكن حصرها في أنها ذات طابع عقدي أخلاقي، وذات نظرة كلية شاملة، وذات قيمة مطلقة ونسبية.إن التوازن بين حقوق الفرد ومصلحة الجماعة يعد محورًا أساسيًّا من محاور العدالة الإسلامية وجوهرها، ولذلك تعد العدالة هدفًا للدولة ووظيفة من وظائفها، وتعتبر العدالة معيار ديمومة الأمم واستمرارها في الرؤية الإسلامية.

١- **العدالة الإسلامية ذات طابع عقيدي أخلاقي:** تدور العدالة الإسلامية في محيط العقيدة الإسلامية، وتستمد أصالتها منها، حيث لا عدالة بمعناها الصحيح، ولا إنصاف حقيقي، شكلا وموضوعًا إلا في ظلال الشريعة الإسلامية:﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [سورة المائدة :٤٥].

ويبني الإسلام عدالته على الإيمان بالله، والنظام المستمد من دينه، وعلى الأخلاق الفاضلة، ومن ثم يصبح العدل الحقيقي في تطبيق ما كلفنا الله به، ويأخذ صفة الإلزام لا التطوع، بما يعنيه ذلك من أن الراعي العادل ملتزم بالميزان الذي وضعه الله العادل المقسط، ويطبق به ما وضعه الخالق، مما يدل على أن الطابع العقيدي للعدالة الإسلامية يجعل طرفي عملية الحكم محكومين لله، ولا يتحاكمان في بعضهما البعض الآخر.(١). ويقرر الإسلام أنه لا سبيل إلى تحقيق العدالة إلا إذا سادت الفضيلة والمحبة، واعتبرت مصلحة المؤمن غير مكتملة إلا إذا دخلت في دائرتها مصلحة أخيه المؤمن(٢)، وهذا ما دفع علماء المسلمين إلى القول بأن أجمع آية لمعاني القرآن الكريم هي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل :٩٠]، وبناء على هذا فإن عدالة الحكم لا

(١)الإسلام أقوى،جهاد قلعجي، بيروت: دار الكتاب العربي، ص ١٩٦-١٩٨.
(٢)تاريخ المذاهب الإسلامية،محمد أبو زهرة، القاهرة: دار الفكر العربي،٩١/٢ وما بعدها.

تتوقف فقط على الحاكم العادل، الذي يجب أن يلتزم بالحياد والموضوعية في الحكم والفصل بين الناس، أو على وضوح العدل في مصدر التشريع فقط، بل تتوقف أيضًا على خلقية الضمير عند من يفصل بينهم من الناس في قضاياهم وخصوماتهم، وبعبارة أخرى: فإن هذه العناصر الثلاثة: حاكم عادل، وقانون عادل، وأخلاق عادلة، تعمل في مجموعها على استقرار العدل وتحقيق التوازن بين الناس.[١]

٢- **النظرة الكلية والشاملة للعدالة**:إن نظرة الإسلام للعدالة نظرة كلية وشاملة، متعددة الأبعاد والمستويات، فهي تتناول جميع مظاهر الحياة، ومختلف مناشطها، كما تتناول الشعور والسلوك والضمير والوجدان.

فالعدالة الإسلامية تشمل القضاء وميدانه، مثل شمولها للحكم والإدارة، بل تشمل الحياة الإنسانية كلها في شتى نواحيها، ولذا يجب على كل صاحب سلطة كبرت أم صغرت، وفي أي مجال من مجالات الحياة، أن يعدل وهو يزاول تلك السلطة.[٢]

٣- **هي عدالة ذات نظام عالمي** إنساني يعتمد على معايير ثابتة في التعامل تعد العدالة الإسلامية نظامًا عالميًّا إنسانيًّا، فهي ليست وقفًا على المسلمين وحدهم، وليست مختارة في شعب بعينه، ولا تهدف إلى تحقيق مصلحة لقوم أو مجموعة من الناس دون سواهم، وإنما هي رسالة عالمية إنسانية، تشمل المسلم وغير المسلم، طالما يتعايش مع المسلم في هدوء وسلام، وتسعى لنشر مبادئها في جميع أنحاء المعمورة، وتغطي البشر كافة من غير إكراه أو إجبار: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ البقرة ٢٥٦. ، كما تهدف إلى جعل العالم أمة واحدة

---

[١]الدين والدولة،محمد البهي، القاهرة : مكتبة وهبة،١٩٨٠، ص ٣١٠، ٣١١.

[٢]مبادئ نظام الحكم في الإسلام مقارنة بالمبادئ الدستورية الحديثة،عبد الحميد متولي، الإسكندرية: منشأة المعارف،١٩٧٨، ص ٢٦٧.

على صعيد العدالة.[١]

وتقوم العدالة الإسلامية على معايير وأسس ثابتة لا تتغير في جميع مستويات التعامل مع الصديق والعدو، في القول والفعل، في السلم والحرب، فهي مطلوبة لذاتها، وواجبة أيّا كان من ينتفع بها، باعتبارها الميزان المستقيم الذي يحدد مسار العلاقات بين الناس في حالة السلم وفي حالة الحرب، وفي توزيع الحقوق وضمان حمايتها، وفي تنظيم الوجود الإنساني.[٢]

ويظهر هذا جليًّا فيما يقرره القرآن الكريم من المعاملة بالبر والقسط مع الآخرين، طالما لم يقاتلوا أو يشاركوا في قتال المسلمين: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة : ٨].

ومن الطبيعي أن تتسم العدالة الإسلامية بطابعها العالمي الإنساني، لأن ذلك يتماشى مع طبيعة الدعوة الإسلامية ذاتها، التي توصف بأنها دعوة قيمها ومبادئها عالمية للناس كافة، ولذا قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء :١٠٧]. لذا كان لابد من أن تكون ذات صبغة عالمية تمامًا كالدعوة نفسها.[٣]

٤- **العدالة الإسلامية قيمة مطلقة ونسبية:** يرتبط مبدأ العدالة في التقاليد الإسلامية بحقيقة مزدوجة، فهي «قيمة عليا تكملها، وتنبع منها مبادئ أخرى تابعة؛ كالحرية والمساواة، كما أنها ممارسة سياسية ترتبط دائمًا ـ وفي إطار فكرة التكتل الإرادي لنشر الدعوة ـ بحالة تسبق حالة الاستقرار الكلي الشامل، التي يسود فيها السلام الإسلامي، ويغلف الوجود الإنساني بأسره».[٤]

---

(١) الإسلام أقوى، جهاد قلعجي، مرجع سابق، ص ١٩٨، ١٩٩ .
(٢) العلاقات الدولية في الإسلام، محمد أبو زهرة، القاهرة : دار الفكر العربي، ص ٣٥.
(٣) العدالة في نظام القيم الإسلامية، خليل عبد المنعم ، مرجع سابق، ص١٩٦.
(٤) تحقيق سلوك المالك في تدبير الممالك، حامد ربيع، مرجع سابق، ص ١٥٨.

ومحور العدالة الإسلامية كقيمة وممارسة، هو الجمع بين العدالة والمساواة، حيث يقصد بالعدالة في معناها العام المساواة، وتتضمن دعوة الإسلام إلى العدالة والأمر بها تحقيق المساواة، ومع ذلك فليست العدالة هي المساواة دائمًا، والعكس، بل قد يبدو كل منهما متناقضًا مع الآخر أحيانًا، فالمساواة هي أسلوب تهدئة لكل الأطراف، يتضمن توزيع الحقوق والواجبات على الكافة، بينما تتجه العدالة إلى الانتقاء والتفضيل والاستبعاد والترجيح، ومن ثم يختلف في تقويم معايير العدالة، وليس الأمر كذلك بالنسبة للمساواة، وعلى ذلك فإن العدالة الإسلامية عندما تجمع بين المفهومين فإنها تلغي ما بينهما من تناقض، فإذا كان المسلمون سواسية، فليس من العدل أن يكون المسلم في مستوى غير المسلم، مع أن هذا الأخير، ومن مدخل العدالة أيضًا،يظل يحتفظ بحقه في المحافظة على تميزه الاجتماعي[١]،

وذلك انطلاقًا من أن المسلم قد أثبت قدرته على الإيمان وعلى التعامل مع مستلزماته،وتعكس هذه الحقيقة ذاتها على مختلف الفئات، حيث لا يمكن أن يخضع غير المسلم من أهل الكتاب لقواعد واحدة مع غير المسلم من عبدة الأوثان، ولا يمكن أيضًا، أن يوضع المسلم الذي يرتفع إلى مرتبة الشفافية في إيمانه مع مسلم آخر لا يرقى إلى هذا المستوى من الشفافية؛ لأن الإيمان قيمة في ذاتها، والقيمة تعني درجات ومستويات، والعدالة تفرض أن لكل درجة ووزنًا، كما أن لها ثوابها تحدده تلك الدرجة».[٢]

والعدالة الإسلامية كقيمة حقيقة عامة ومجردة ومطلقة، بيد أنها أمر نسبي كممارسة وتطبيق، حيث تختلف معاييرها في التطبيق باختلاف ظروف الزمان والمكان، كما أنه من الصعب على الإنسان أن يفرض العدل بصورة مطلقة، ومن الجائز والمحتمل أن يميل الفرد لطرف أكثر من الآخر، ولذا ينهى الله تعالى عن الميل

---

(١) العدالة في نظام القيم الإسلامية، خليل عبد المنعم ، ص١٩٦، ١٩٧.
(٢) تحقيق سلوك المالك في تدبير الممالك ، حامد ربيع، ص ١٨١.

على إطلاقه في تطبيق العدالة، ففي النص القرآني: ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء : ١٢٩]، ففي هذه الآية الكريمة دلالة بليغة على مراعاة نسبية الحق والعدل، فيصبح العدل أمانة يجب على الإنسان أن يؤديها محاولا بذلك ضبط الميزان الذي صنعه الله ووضعه في يده(١).

٥- **العدالة هدف الدولة ووظيفتها**:إقامة نظام العدالة هو هدف الدولة في الإسلام وغايتها، وتستند العدالة على القوة، فهي فضيلة الأقوياء، يستوي في ذلك المجالات الخاصة والعامة، وهي القيمة السياسية الوحيدة، دون غيرها من القيم الإسلامية، التي تعد القوة

أحد وسائل تحقيقها، يقول الله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد:٢٥]، فغاية الدولة الإسلامية هي إقامة العدل الذي من أجله أرسل الرسل، بل أهم وظائفها الأساسية تأمين العدل والكفاية للناس جميعًا، وهي في ذلك تلتزم بتحقيق العدالة بأوسع معانيها، وفي شتى مجالاتها السياسية والإدارية والقضائية والاجتماعية والاقتصادية والدولية، وبما يتضمنه ذلك من حماية الحقوق والحريات العامة، والمساواة في صورها المختلفة.(٢)

٦-**التوازن بين حقوق الفرد ومصلحة المجتمع** هو محور العدالة الإسلامية

تضمن العدالة الإسلامية مصلحة الفرد، وتحقق مصلحة المجتمع في آن واحد، وتخلق توازنًا محكمًا في طبيعة العلاقة بينهما، فأحكام الإسلام تسودها روح الاعتدال ونبذ التطرف، ولذلك كانت الشريعة الإسلامية سباقة في تحقيق الملاءمة بين حماية الفرد وحريته وبين حماية حقوق المجتمع، فهي تقرر الحريات

(١)العدالة في نظام القيم الإسلامية، خليل عبد المنعم ، ص١٩٧.

(٢) من أصول الفكر السياسي الإسلامي،محمد فتحي عثمان،بيروت:مؤسسة الرسالة، ١٩٨،ص ٥٩ وما بعدها.

الفردية، وتضمن حمايتها تعبيرًا عن قيمة الفرد واحترام الكرامة الفردية، بيد أن الحرية الفردية مقيدة بعدم الإضرار بالأفراد الآخرين أو بالمصلحة العامة للمجتمع.(١)

فعلاقة الفرد بالمجتمع في النموذج الإسلامي علاقة تكامل وتعاون لا علاقة تناطح وصراع كما هو الحال في النموذج الغربي، سواء في شقه الاشتراكي حيث يذوب الفرد في سبيل المجتمع، أم في شقه الليبرالي حيث تذوب حقوق المجتمع مع مصالح الأفراد، وتتجلى هذه العلاقة التكاملية التعاضدية بوضوح في واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والذي يعني في أبسط معانيه إحقاق الحق ومقاومة البغي، ويتكامل في تحقيق ذلك دور الفرد ودور المجتمع، فهو التزام وواجب ديني مفروض على الفرد والجماعة على السواء، يضمن منع الاعتداء على الحقوق ويحميها.(٢)

٧- العدالة شرط ضروري ولازم في الصلاحية للولايات العامة:

في الحضارة الإسلامية يتم تجسيد قيمة العدالة في أنقى صورها، فهي أحد شروط الصلاحية التي يجب توافرها فيمن يتولون إدارة المؤسسات والنظم، وبخاصة مؤسسة القضاء،

ولذا يعتبر الكثير من العلماء شرط العدالة واحدًا من أهم الشروط الضرورية واللازمة للقيام على أمر النظم والمؤسسات الحيوية في المجتمع الإسلامي.(٣)

وإذا ما أخذنا نظام القضاء على سبيل المثال، لرأينا إجماعًا عند علماء المسلمين على ضرورة توفر شرط العدالة فيمن يتولى هذا المنصب، ويحدد الماوردي ماهية هذا الشرط، فيذهب إلى أنه يعني: «أن يكون القاضي صادق اللهجة، ظاهر الأمانة، عفيفًا عن المحارم، بعيدًا عن الريب، مأمونًا في الرضا

(١) النظم السياسية، عصام عجيلة، القاهرة : مطبعة حسان، ١٩٨٥، ص ٣٣٩، ٣٤٠.
(٢) أصول الفكر السياسي الإسلامي، محمد فتحي عثمان، مرجع سابق، ص ٣٢٠ – ٣٢٢.
(٣) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع،الكاساني،القاهرة:المطبعة الجمالية، الطبعة الأولى،٣،٤/٧

والغضب، مستعملا المروءة في دينه ودنياه».[١]

وكذلك تعد العدالة أساس الصلاحية للولايات العامة، ومحور شرعية الحكم في الإسلام، في شرط ابتداء وشرط استمرار، كما أنها محور شرعية الحكم في النموذج الإسلامي.[٢]

المطلب الثالث: القيمة الثالثة: الشورى:

مبدأ الشورى الذي لا يزيد عن كونه التطبيق الجماعي لمبدأ العدالة السياسية . أو بعبارة أصح تصبح العدالة السياسية الوجه الآخر للشورى على المستوى الفردي، ويغلف هذا وذاك (العدالة والشورى) مبدأ التوحيد، الذي يعد جوهر القيم السياسية الإسلامية وقالبها، حيث يسود على هذه القيم جميعها، ولا تملك هذه القيم إلا أن تدور في محيطه ودائرته فتتشكل به ولا تخرج عنه.

-مفهوم وشرعية الشورى:ومفهوم الشورى يتجلى في : اجتماع الناس على أمر ما لتداول الرأي، واستخلاص الصواب في المسائل المعروضة لاستصدار القرار.[٣] ، وتكون في الأمور التي لم يتكلم فيها الوحي الشريف.

والمرجعية الأولى في استمداد مبادئ الشورى هي القرآن الكريم، لقوله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ

---

[١]الأحكام السلطانية، الماوردي، تحقيق : أحمد مبارك البغدادي، الكويت : مكتبة دار ابن قتيبة، ١٩٨٩،ص٨٩

[٢]نظام الحكم الإسلامي مقارنة بالنظم المعاصرة،محمود حلمي،القاهرة:دار الهدى للطباعة،١٩٧٩،ص ٩٣وما بعدها.

[٣] الشورى والمؤسسات التشريعية ، أحمد علي الإمام ، (بحث مقدم للمجلس الأوربي للإفتاء ، الدورة السادسة عشرة ، إسطنبول)

اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (١).يأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يشاور أصحابه، وهو أمر للوجوب كما يدل السياق.. وقال تعالى في وصف المسلمين بأن جعل الشورى من صفاتهم: ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (٢). ولعظمة الأمر بالشورى جعلها الإسلام صفة من صفات المسلمين وقرنها بالصلاة الركن الثاني ، إذ قرنها بالإيمان والصلاة والزكاة .وقوله تعالى في وصف المسلمين: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ الشورى:٣٨ كل ذلك فيما لا نص فيه.

الشورى أساس عظيم من أسس الحكم، وهي من أعظم القيم الإسلامية، إذ هي التطبيق الفعلي لمبدأ العدالة السياسية .

والشورى مبدأ قرآني عظيم، وذلك لأن الجماعة إذا أخطأ رأيها في مرة ، أصاب في ألف ، والعكس رأي الفرد إذا أصاب في مرة أخطأ في ألف ، وهذا الفرق بين عقل واحد وعقل ألف ، وهو فرق كبير ، شريطة أن يستشار أهل الكفاءة والاختصاص .

–تمثل النبي صلى الله عليه وسلم للشورى:

استشار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه في يوم بدر وفي أحد ويوم الخندق وفي سبي هوازن وغير ذلك

الأولى: استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم المهاجرين، فقام أبو بكر الصديق، فقال وأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله! امض لما أراك الله فنحن معك،

والله لا نقول لك ما قال بنو إسرائيل لموسى:ا ذهب أنت وربّك فقاتلا، إنا ههنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون، فو الذي بعثك بالحقّ؛ لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتّى تبلغه!!.

(١)سورة آل عمران ، آية ١٥٩

(٢) سورة الشورى ، آية ٣٨

فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم خيرا ودعا له.

الثانية: قال صلى الله عليه وسلم: «أشيروا عليّ أيها الناس» ،

يريد الأنصار، قال له سعد بن معاذ: والله لكأنّك تريدنا يا رسول الله!

قال: «أجل» ، فقال: قد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أنّ ما جئت به هو الحقّ، وأعطيناك على ذلك مواثيقنا على السّمع والطاعة لك،

فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحقّ لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلّف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا؛

إنّا لصبر في الحرب، صدق عند اللقاء، لعلّ الله يريك منّا ما تقرّ به عينك،

فسر على بركة الله. (١)

-مجال الشورى: الشورى لا تكون إلا فيما لم ينزل فيه وحي، أما ما نزل فيه الوحي فلا مجال للرأي فيه .

والشورى كما تكون في الخاص من المسائل تكون في الشأن العام، والشورى باعتبارها من مبادئ النظام السياسي الإسلامي تتحرك أصالة على الأمور العامة، وتتحرك تبعاً على الأمور الخاصة ذات الصلة الوثيقة بالشأن العام، ودائرتها التشريعية كل فروع القانون، ودائرتها الاجتماعية كل ما يحتاج إلى التنظيم من أحوال الناس، وكل المسائل التي يقع الخلاف فيها الخلاف بين الحاكم والمحكوم .

(١) ابن هشام ، سيرة ابن هشام ، ت : طه عبد الرؤوف سعد ، ط : شركة الطباعة الفنية المتحدة ، ٢ ، ١٨٨، ابن حجر ، فتح الباري ، ت : محمد فؤاد عبد الباقي ، بيروت ، دار المعرفة ،٤ / ٤٨٤، وما بعدها .

وفي اجتهاد "عمر بن الخطاب" تصوير أمين لدور الشورى في الحياة العامة في السلم والحرب، فبعد فتح العراق طلب الجند تقسيم الغنائم على الطريقة التي اعتادوها،

فاستشار القائد سعد بن أبي وقاص قيادته المركزية ممثلة في الخليفة عمر بن الخطاب الذي رفض تقسيم أرض السواد، وقدم تحليلا ماليا للمسألة كما ذكر ذلك قاض القضاة الإمام "أبي يوسف" في كتاب "الخراج".

المطلب الرابع: القيمة الرابعة: الحرية:

يعتبر مفهوم الحرّية من أهم المفاهيم التي تلتقي عندها مشاعر الناس جميعاً، وهذه الصلة العاطفية التي تربط الإنسان بالحرية ليست ظاهرة حديثة في تاريخ الإنسانية، ولا من نتائج الكيانات الحضارية التي يعيشها الإنسان الرأسمالي والاشتراكي اليوم، وإن استغلّت بعض الحضارات الحديثة عاطفة الإنسان تجاه الحرّية إلى أبعد حدود الاستغلال، وإنما تعبّر هذه الصلة العاطفية عن عاطفة أصيلة في النفس البشرية تشعّ من كل ثنايا التاريخ حتى تبدو كأنها قصة الإنسان نفسه، وكأنها معركة تحرّر وتحرير يخوضها على مرّ الزمن منذ أعماق التاريخ إلى يومنا هذا، بالرغم من اختلاف أشكال المعركة وألوانها وأهدافها وأساليبها باختلاف القيم الفكرية التي ترتكز عليها.

وهذه الظاهرة العاطفية العامة نجد تفسيرها في جانب ثابت من تكوين الإنسان وهو الإرادة، وهذه بعض النصوص من آيات القرآن الكريم تؤكد هذه الإرادة، وإن شئت سميتها الحرية: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴾[الإسراء: ١٨، ١٩].

فالإنسان إذن مجهز ضمن تركيبه العضوي والنفسي بالإرادة، وهو لذلك يحبّ الحرّية ويهواها، لأنّها تعبير عملي عن امتلاكه لإرادته.

-**الحرية الفردية**: إن من أهم القضايا المثارة قضية الحرية الفردية، وذلك لما لها من تأثير، ولأنها المدخل الأساس للحضارة الغربية والتي تأسست عليها الديمقراطية الغربية.

-**خصوصية واستقلال الأمة الإسلامية عن غيرها من الأمم**: ليس كل ما في العالم يصلح لنا، كما أن كثيرًا مما لدينا لا نُلزم به العالم، فنحن لا نُلزم العالم أن يكون على ديننا، أو أن يكون نظام الأسرة عنده مثل نظامنا، أو مثل علاقتنا، ولكن علينا أن نعترف أن لكل عالم قيمًا ومُثلا ومبادئ يحافظ عليها، بعض الناس عندنا يقولون: إن هنالك شيئًا يجب أن نقدسه وهو الحرية الفردية

فنقول لهم: إن الحرية الفردية على الإطلاق وبدون ضوابط، بهذا المعنى لا وجود لها، فلو دخلت إلى أوربا لكنت مقيدًا حينما تدخل، فتدخل وأنت تحترم القانون هناك، وتحترم رؤية المجتمع هناك، وتحترم تقاليد المجتمع هناك، فمن ذهب إلى أوربا وأطلق لسانه لابد وأن يجد نفسه وراء القضبان.

نقول: إن أوربا لها تقاليد كما رأينا، لكن في بلادنا نحن فقط لنا الحرية- كما يريدها البعض- بالمعنى المطلق وبدون قيود، والذي يؤدي في النهاية إلى فوضى.وليس معنى هذا انغلاق الأمة الإسلامية، بل هي منفتحة على كل القيم الفاضلة والجميلة والعادلة، مهما كان مصدرها، فقد شارك النبي صلى الله عليه وسلم في حلف الفضول الجاهلي[1]، واستمر ثناؤه عليه حتى بعد الإسلام في قوله: " أمَا لو دُعيتُ إليه اليومَ لأجبتُ. " [2] . لكن هذا لا يعني استعدادها لتلقيها ما عند الآخرين تلقيًّا أعمى يحرمها من حقها في تحليلها، وتتبع بَصْمتها.

(١)أخرجه أحمد ١٩٣/١، والبخاري في "الأدب المفرد" ٥٦٧، والحاكم ٢١٩/٢-٢٢٠.

(٢). محمد بن إسحاق الفاكهي، أخبار مكة،ت: عبد الملك دهيش،بيروت: دار خضر،١٩٩٤م، ٣ /٢٧٦.

-عناية الإسلام بالحرية الفردية: لقد جاء الإسلام باحترام الشخصية الإنسانية، والشخصية الإنسانية لا تكون إلا مع الحرية، حرية الإقامة، وحرية الانتقال، وحرية التدين، وحرية الفكر والرأي. (١) . والحرية شيء مما يدعو إليه الإسلام، فالإسلام هو دين تحرير الناس، فقد حررنا الإسلام من الأوهام، ومن عبادة غير الله، ومن الشرك، حررنا من كل الأشياء التي لازال بعض الناس يخضعون لها، فلا زال الإنسان الهندي يسجد للبقرة،

لقد حررنا الإسلام من كل ذلك، لازال الإنسان يسجد للسحر ويخافه، ولكنَّ الإسلام حررنا من هذا، نحن في الإسلام لا نخاف إلا الله، نحن أحرار، فالحرية أصيلة فينا، نحن تربينا في الإسلام على الحرية.

والدين عندنا كان دائمًا هو الأصل والمنشأ في الحرية، وعقيدة التوحيد فيه هي بالذات عقيدة التحرير من الخضوع لما سوى الله، والأنبياء هم المحررون الأوائل الذين أخرج الله بهم الناس من عبودية البشر وقوى الطبيعة والأوهام إلى فضاء الحرية والطلاقة، فكان موسى عليه السلام محررًا بارزًا انتشل شعبه من قهر فرعون وظلمه وغشمه، ورفعه إلى مستوى الحرية والمسؤولية كما أمره ربه سبحانه، وهذا المراد هو الذي عبر عنه الله تعالى بقوله:﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ القصص:٥.

والقناعات لا تفرض، والاستبداد بالرأي مذموم، قال تعالى حكاية عن استبداد فرعون بقومه: ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (غافر: آية: ٢٩).

وكان محمد صلى الله عليه وسلم محرر الناس الأكبر، الذي فك عنهم قبضة الأسياد الأبديين، وثبت الأخوة الإيمانية، وقرن قيمة الإنسان بتقواه، وصلاحه وإيجابيته وقدرته على التحليق في سماء الفضيلة.

(١)محمد أبو زهرة، المجتمع الإنساني في ظل الإسلام، مرجع سابق، ص ٢٥٧.

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات : آية : ١٣).

وفي المفهوم الإسلامي: إن الإنسان هو الذي بوسعه أن يقرر ويختار الخير من الشر، والهداية من الضلال، والصعود من الانحدار، والصلاح من الفساد ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (الرعد : آية : ١١).

وأساس الحرية والاختيار مستبطن في فطرة الاستخلاف، ذلك أن الإنسان لما كان مسئولا عن التقيد بأحكام المستخلِف وهو الله سبحانه، فإن هذه المسئولية أمام الله سبحانه وتعالى لا معنى لها إلا بالحرية والاختيار، وهذه الحرية والاختيار يمكن أن تُفهم من جعل الإنسان خليفة لله تعالى، الذي يتصف بالإرادة والاختيار، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه المسؤولية التي تحملها الإنسان في آية (الأمانة):

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ (الأحزاب : آية : ٧٢)، وتلك الأمانة هي العقل، فإنه به يحصل تعلم كل ما فى طوق البشر تعلمه، وفعل ما في طوقهم فعله من الجميل، وبه فُضِّل الإنسان على كثير من الخلائق.[١] ، وبناء عليه فالإنسان مفطور على إرادة، كما قال تعالى﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ (الإنسان: آية : ٣). ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ ﴾ (الكهف : آية : ٢٩).

-**المفهوم الإسلامي للحرية الفردية:** لما كان الإنسان مختارًا، انطلاقًا من مبدأ الخلقة: ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (البلد: آية : ١٠)، فإنه لا يمكن الفصل بين الحرية والاختيار، بل إن الاختيار هو محور الحرية، إذ لا يمكن إطلاق وصف الحرية على إنسان ما، إذا لم يكن مختارًا أصالة، وإلا انتفت الحرية،

(١) الألوسي ، روح المعاني ، ت: علي عبد الباري عطية، بيروت : دار الكتب العلمية، ١٩٩٥، (٧ / ٢٤٩).

واعتبر القرآن الكريم الحرية أمرًا مساويًا للحياة ذاتها، ومن ثم جعل تحرير الرقبة كفارة للقتل الخطأ.[١]

وتفسير معنى الحرية: أنها كلمة أُخذت من وصف الحر، فالحر والحرية متلاقيان في المؤدى، وإن كانت الحرية وصفًا، والحر موصوفًا، والحر حقًّا هو الشخص الذي تتجلى فيه المعاني الإنسانية العالية، ويضبط نفسه، فلا ينطلق وراء أهوائه وشهواته، ولا يكون عبدًا لها، فالحر يبتدئ بالسيادة على نفسه، وإطلاق إرادته وعقله من قيود شهوته.[٢]

ومن أطلق العنان لأهوائه وشهواته، باسم الحرية، فهذا ينطبق عليه قول الحق تعالى:﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلا ﴾ (الفرقان : آية : ٤٣) وإنما حرية المؤمن مرتبطة بمرجعية الشرع، كما في الحديث: " لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ" [٣]

إن الحرية قيمة إنسانية جميلة، لا يجوز أن تشخص في فعل يمثل في الإنسان ضعفًا بشريًّا. والإنسان الفرد مسؤول مسؤولية فردية في الإسلام، وهذا واضح كل الوضوح في القرآن الكريم، كما قال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (المدثر : آية : ٣٨) ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ (الطور : آية : ٢١).

ولكن عن أي حرية نتحدث؟ إذا كنا سنُخل بتعاليم القرآن الكريم، فنحن مع القرآن الكريم طواعية واختيارًا، نحن مسلمون، والقرآن هدايتنا ونورنا وفرقاننا، نحن نرجع إليه، ونحاكم الأشياء إليه.

فمثلا الأسرة في أوربا تكاد تموت، أو انتهت، فيمكن عندهم أن تتشكل الأسرة من رجل وامرأة بلا عقد زواج، فمثل هذا النوع من الحرية لا يصلح لنا،

---

[١]. محمد عبد الله دراز ، نخبة الأزهار وروضة الأفكار ،تحقيق عبد الله الأنصاري، الدوحة:مطابع قطر الوطنية،ط: ١٩٧٩ ، ص ٥٠ وما بعدها.

[٢]. محمد أبو زهرة، المجتمع الإنساني في ظل الإسلام،مرجع، ص ٢٥٨.

[٣]. ابن أبي عاصم، السنة، (١٢/١).

لا يمكن أن نقبل بالزنا، فإن القرآن الكريم، وهو مرجعيتنا، لم يتهادن يومًا ما مع الزنا، والبعض ممن ينادي بالحرية المغلوطة يقول: إن هذه حرية، ونحن نجيب: إن الله حرم هذا في القرآن، فقال: ﴿ وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَا ﴾ (الإسراء : آية : ٣٢)، ونحن مسلمون ونتبع حكم الله .

-تصحيح مفهوم الحرية الفردية عند الغرب: لا يوجد في أي ثقافة من الثقافات شيء اسمه الحرية بالمعنى السائد الذي يتحدث عنه الناس الآن، ويعتبرونه ميزة المجتمعات الغربية، باعتبارها لا تتدخل في حرية المعتقد، وفي حق الأفراد في فعل ما يحلو لهم بأنفسهم داخل المجتمع، هذا الكلام هو تغليط في فهم الثقافات الأخرى، نقول إن الثقافات والحضارات الأخرى تنحاز في الوقت الحالي إلى المجتمع، ولا تُعلي من شأن الفرد على حساب المجموع، بمعنى أنها تعطي السلطة العلوية للمجتمع، فالإنسان يبني بيته ولكن وفق منظور المجتمع وتخطيطه، فلا يجوز له أن يخالف في البناء أو في اللون الذي تختاره المدينة، فهو إذن محكوم برؤية المجتمع، كما أنَّ هذا الإنسان وإن كان حرًّا إلا أنه لا يمكنه أن يدخن أمام الناس في مكان عمومي، فحريته في هذه الحالة ليست معتبرة، بل وجود المجتمع هو المعتبر، وبناء على ذلك أصبح هذا الفعل- أي التدخين - مُجرَّما، ولا يمكن بالتالي لأي إنسان في أوربا أن يدخن في مقهى؛ لأنه يمارس حريته، وهكذا، فكل الممارسات تجدها محكومة بحرية مجتمعية، والمجتمع هو الذي يقبل هذا أو يرفضه.

وفي المجالات الفكرية والتعبيرية، نلاحظ أن حرية التعبير في هذه المجتمعات ليست حرية فردية مطلقة، بل إنها مقيدة ومنضبطة، ونذكر هنا القانون الذي صدر في فرنسا، والذي ينص على تجريم التشكيك في إبادة الأرمن، وفرنسا الحداثية أقرت هذا القانون.

ولا يسمح الأوربيون أيضًا لأي كائن كان بأن يسيء إلى العلم الوطني، لأنه بالنسبة لهم بمثابة مقدس من المقدسات، وحينما يمزقه، أو يطؤه أحدهم

بالأقدام، فإنه لا يمارس حريته، بل يكون في تلك اللحظة قد تغلغل في كيان المجتمع، وأساء إلى الذهنية المجتمعية، ونحن لا نجد أبدًا أن حريةً بالمعنى الذي يريد أن يفرضه بعض الناس هي حق أساسي للإنسان، لأنه حق يظلم أناسًا آخرين، وهذه هي الحدود التي نتحدث عنها، أما ما يروِّج له البعض حول مفهوم الحريات الفردية وكونها مطلقة، مستدلين على ذلك بالمجتمعات الغربية، فهم إما لا يفهمون الثقافات الأخرى، ولا يغوصون في أعماقها، وإما يعرفون ويغالطون، ويريدون أن يدفعوا المجتمع إلى فوضى حقيقية سيؤدي الجميع ثمنها؛ لذلك نقول دائمًا: إنه لا بد من اعتبار المجتمع، وهذا ما يدعو إليه الإسلام، فالإنسان إذا جاز أن يفطر لسبب شرعي سواء كان مسافرًا أو مريضًا يفعل ذلك شريطة احترام مشاعر الآخرين، كما لا يجوز له أن يسب آلهة المشركين؛ لأن القرآن نهاه عن ذلك، وكل هذه الأشياء هي جزء من الآداب الإسلامية.

إذن الإسلام علَّم الناس أن يحسنوا التعايش، فمن نظر في طبيعة الإسلام جيدًا تحقق صفاء سريرته من مقاصد تضرم في أحشاء أهله جمرة التعصب الباطل ضد ديانة أخرى، كما يزعم بعض من لم يسمعوا دعوته إلا من وراء حجاب[1]، وهكذا عاش المسلمون مع الأغيار من غير المسلمين على أساس الاحترام المتبادل، لكن دعاة الحريات الفردية المطلقة يريدون الاستعلاء على المجتمع، وأن يجعلوا من أنفسهم شيئًا أعلى من المجتمع، وهذا فكر خاطئ لا يقول به أحد في العالم.

-**معايير الغرب المزدوجة للحرية:** في جميع هذه الحالات، لا تكون دعوى ممارسة الحرية الفردية مبررًا كافيًا للخروج عن سلطة المجتمع واختياراته، وبهذا يتبين نفاق المنظمات والجمعيات التي تمضي في نسق احترام النظام العام والذوق المجتمعي في بلادها، لكنها تدعم محاولات الانتفاض

(١)محمد الخضر حسين ، الحرية في الإسلام ، القاهرة : دار الاعتصام ، ص ٦٦

على المجتمع في دول أخرى.[1]

وحينما نحاول معرفة مقدار المساحة التي تُمارس عليها الحرية الفردية في نفس المجتمعات التي تسوّق الحرية الفردية، وتقايض عليها، وتتخذها مبررًا لخلخلة قيم مجتمعات رخوة، مصابة بسهولة الاستهواء، فإننا نلاحظ أن تلك المساحة تضيق تدريجيًّا، وقد يكون موضوع منع حجاب المرأة المسلمة في بعض البلاد الغربية شاهدًا على هذا التوجه، وهو منع لم يفد فيه الدفع الحقوقي بحق ممارسة الحريتين الفردية والدينية.

وإن الذي يعنينا من كل هذا أن هذه محطة يجب علينا كمسلمين جميعًا أن نقف عندها، فالشعوب الإسلامية تطالب اليوم مفكريها ومثقفيها، وكتابها وشعراءها أن ينحازوا لأمتهم، فالعديد منهم أساؤوا إلى الإسلام باسم الحرية قبل أن يسيء إليه الغرب، وهاهم اليوم يقفون مبهورين عندما يتعامل الغرب مع مسألة حرية الرأي، وحرية التعبير، وحرية الصحافة بمكيالين، لقد حان الوقت لكتابنا وفنانينا وشعرائنا أن ينتجوا ويبدعوا لنا تحفًا تبين قيمة الإسلام الحقيقي، وتاريخ الإسلام، وسيرة الرسول الكريم وصحابته، بدلا من أن يسيئوا هم أنفسهم إلى الإسلام.

المطلب الخامس: القيمة الخامسة: الطاعة

إن عنوان الإسلام ومقصده الأعظم، هو جلب المصالح ودرء المفاسد وتقليلها في أمور الدين والدنيا.

ولا سبيل لتحقيق ذلك إلا من خلال حكم راشد وسياسية سديدة، ولهذا أولى الإسلام بالغة بمسألة الولاية الشرعية، فجاءت النصوص الشرعية مبينة أهمية قيمة السمع والطاعة، والبيعة.

---

[1] مصطفى بن حمزة، مقال بين الحرية الفردية والتحرش بالدين، مجلة الفرقان المغربية، العدد ٧٠.

وقد تضافرت النصوص على طاعة ولاة الأمر، والصبر عليهم كما جاء في قوله تعالى :﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ النساء : ٥٩

وقد اختلفت أقوال أهل العلم في المقصود بأولي الأمر – هل هم العلماء أم الأمراء – قال ابن جرير الطبري – بعد أن ذكر هذه الأقوال-: وأولي الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: هم الأمراء والولاة لصحة الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأمر بطاعة الأئمة والولاة فيما كان طاعة وللمسلمين مصلحة.(١)

-ضابط السمع والطاعة: طاعة ولاة الأمر ليست طاعة مطلقة من أي قيد، إنما تجب طاعتهم في المعروف، وما اكتسبوا حقَّ هذه الطّاعة إلا بما جعلهم سببا لحراسة الدين وعمارة الدنيا، ولا يتصور أن تتحول تلك الطاعة إلى طاعة فيها طابع التقديس يتحول فيها الإمام إلى إله .

وقد تظاهرت الأدلة على إعمال هذا القيد ، ومن ذلك : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الممتحنة : ١٢

والشاهد قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ﴾ ففيه تنبيه على أن طاعة المخلوق في معصية الخالق جديرة بالتوقي والاجتناب .(٢)

وأيضاً ما ثبت عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى الله عليه وسلم سرية فاستعمل عليها رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ، فَغَضِبَ، فقال: أليس أمركم النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ تُطِيعُونِي؟ قالوا: بلى، قال: فاجمعوا

(١) تفسير الطبري ، ٥ / ١٥٠

(٢) تفسير الزمخشري ، الزمخشري ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ٤ / ٥٢٠

لي حطبا، فجمعوا، فقال: أوقدوا نارا، فأوقدوها، فقال: ادخلوها، فهموا وجعل بعضهم يمسك بعضا، ويقولون: فررنا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ النار، فما زالوا حتى خمدت النار، فسكن غضبه، فَبَلَغَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: (لو دخلوها ما خرجوا منها إلى يوم القيامة، الطاعة في المعروف[1]وهو نص صريح في اعتبار تقييد الطاعة بالمعروف ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم رتب على ذلك أنهم لو أطاعوا أميرهم في معصية دخلوا النار .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية [2]: وأولو الأمر من أهل العلم وأهل الإمارة إنما تجب طاعتهم إذا أمروا بطاعة الله ورسوله. قال صلى الله عليه وسلم {لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق}[3]

(١) رواه البخاري ، كتاب المغازي ، باب : سرية عبد الله بن حذافة .

(٢) مجموع الفتاوي ، ابن تيمية ، المدينة المنورة ، ط : مجمع الملك فهد ، ٢٠٠٤ هـ ، ١٤٢٥ م ، ١ / ٣١٦

(٣)مسند أحمد ، مسند علي بن أبي طالب ، رقم ١٠٩٥

الخاتمة

وبعد هذه الجولة السريعة حول أهم القيم السياسية في القرآن الكريم نستطيع أن نصل إلى أهم تلك النتائج :

١. المؤمن الذي تشرب بنور التوحيد لا يتلبس بمبدأ تأليه الحاكم أو السلطة المفوضة من الإله أو ما يعرف في أوربا بالحكم الثيوقراطي .

٢. إذا كان النموذج الحضاري الغربي يجعل من المبدأ الديمقراطي القيمة الجماعية العليا التي لا تقبل التنازل أو المفاضلة، كما يجعل من مبدأ الحرية في شقه الليبرالي القيمة الفردية العليا، والتي تغيرت في شقه الاشتراكي ليحل مبدأ المساواة محلها كقيمة عليا، وما عدا ذلك يدخل في تعداد القيم الفردية التابعة، حيث العدالة والشرعية على سبيل المثال لا الحصر.

٣. فإن النموذج الحضاري الإسلامي، يقدم نظامًا قيميًا مختلفًا تمامًا، حيث يكون مبدأ التوحيد قيمة جماعية عليا ذات طبيعة محورية تحدد ماهية المجتمع الإسلامي، وتلقي بظلالها وانعكاساتها على جميع القيم الحضارية الإسلامية الأخرى، فإذا بمبدأ الشورى، وهو قيمة جماعية أيضا، يتبع مبدأ التوحيد، وإذا بمبدأ العدالة في نطاق القيم الفردية يصعد ليحتل مرتبة القيمة الفردية العليا، في حين تأتي قيم الحرية والمساواة والشرعية وغيرها من القيم الإسلامية في نطاق القيم الفردية التابعة.

٤. مبدأ الشورى هو التطبيق الجماعي لمبدأ العدالة السياسية في القرآن الكريم

٥. ليس كل ما في العالم يصلح لنا، كما أن كثيرًا مما لدينا لا نُلزم به العالم، فنحن لا نُلزم العالم أن يكون على ديننا، أو أن يكون نظام الأسرة عنده مثل نظامنا، أو مثل علاقتنا.

٦. ولكن علينا أن نعترف أن لكل عالم قيمًا ومُثلا ومبادئ يحافظ عليها، وذلك لأن بعض الناس عندنا يقولون: إن هنالك شيئًا يجب أن نقدسه وهو الحرية الفردية.

قائمة بأهم المصادر والمراجع

١. أحمد علي الإمام، الشورى والمؤسسات التشريعية، (بحث مقدم للمجلس الأوربي للإفتاء ، الدورة السادسة عشرة ، إسطنبول)

٢. الألوسي ، روح المعاني ، ت: علي عبد الباري عطية، بيروت : دار الكتب العلمية، ١٩٩٥.

٣. جميل صليبا ، المعجم الفلسفي ، بيروت ، الشركة العالمية للكتاب ، ١٩٩٤م .

٤. جهاد قلعجي، الإسلام أقوى، بيروت: دار الكتاب العربي.

٥. ابن أبي ربيع (شهاب الدين أحمد بن محمد)، سلوك المالك في تدبير الممالك تحقيق :د. حامد ربيع، القاهرة : مطابع دار الشعب، ١٩٨٣م.

٦. حامد ربيع، نظرية القيم السياسية،مذكرات غير منشورة ، قسم العلوم السياسية ،كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، جامعة القاهرة،١٩٨٢م

٧. حامد عبد الله ربيع ، مدخل في دراسة التراث السياسي الإسلامي ، تحرير : سيف عبد الفتاح ، القاهرة ، مكتبة الشروق ، ٢٠٠٧.

٨. خليل عبد المنعم ، العدالة في نظام القيم الإسلامية، القاهرة : مكتبة الآداب.

٩. عبد الحميد متولي، مبادئ نظام الحكم في الإسلام مقارنة بالمبادئ الدستورية الحديثة، الإسكندرية: منشأة المعارف،١٩٧٨م.

١٠. عبد الرحمن تاج ، السياسة الشرعية والفقه الإسلامي ، القاهرة ، مطبعة دار التأليف ، ١٩٥٣م

١١. عصام عجيلة، النظم السياسية، القاهرة : مطبعة حسان، ١٩٨٥.

١٢. عطية عدلان، الأحكام الشرعية للنوازل السياسية ، القاهرة ، دار اليسر

١٣. الكاساني، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، القاهرة : المطبعة الجمالية، الطبعة الأولى.

١٤. الكفوي ، الكليات ، بيروت ، الرسالة.

١٥. الماوردي، الأحكام السلطانية، تحقيق : أحمد مبارك البغدادي، الكويت : مكتبة دار ابن قتيبة، ١٩٨٩.

١٦. مجموع الفتاوي ، ابن تيمية ، المدينة المنورة ، ط : مجمع الملك فهد ، ٢٠٠٤ هـ ، ١٤٢٥ م

١٧. محمد أبو زهرة، العلاقات الدولية في الإسلام، القاهرة : دار الفكر العربي

١٨. محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، القاهرة: دار الفكر العربي

١٩. محمد الخضر حسين ، الحرية في الإسلام ، القاهرة : دار الاعتصام .

٢٠. محمد عبد الله دراز ، نخبة الأزهار وروضة الأفكار ،تحقيق عبد الله الأنصاري، الدوحة:مطابع قطر الوطنية،ط: ١٩٧٩.

٢١. محمد فتحي عثمان، من أصول الفكر السياسي الإسلامي، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٤.

٢٢. محمود حلمي، نظام الحكم الإسلامي مقارنة بالنظم المعاصرة، القاهرة: دار الهدى للطباعة، ١٩٧٩.

٢٣. مصطفى بن حمزة، مقال بين الحرية الفردية والتحرش بالدين، مجلة الفرقان المغربية، العدد ٧٠.